

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْرٌ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ آيَاتَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ وَقَالُوا أَأَلْقَوْنا فِيْ - أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءآذَانِنَا وَقُرْءَانٍ مِّنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونُ ﴿﴾

قوله تعالى: ﴿ حَمْرٌ ﴾ ١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قال الزجاج: ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿ كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ ﴾ وهذا قول البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون رفعه على إضمار هذا. ويجوز أن يقال: ﴿ كِتَابٌ ﴾ بدل من قوله: ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾. وقيل: نعم لقوله: ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾. وقيل: ﴿ حَمْرٌ ﴾ أي هذه ﴿ حَمْرٌ ﴾ كما تقول: باب كذا، أي: هو باب كذا ف ﴿ حَمْرٌ ﴾ خير ابتداء مضممر أي: هو ﴿ حَمْرٌ ﴾، وقوله: ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ مبتدأ آخر، وقوله: ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبره. ﴿ فَصَّلْتُ آيَاتَهُ ﴾ أي بينت وفسرت. قال قتادة: بيان حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته (١). الحسن: بالوعد والوعيد (٢). سفيان: بالشواب والعقاب (٣). وقرئ « فَصَّلْتُ » أي: فرقت بين الحق والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك: فصل، أي: تباعد من البلد. ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ في نصبه وجوه؛ قال الأخفش: هو نصب على المدح. وقيل: على إضمار فعل؛ أي اذكر ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾. وقيل: على إعادة الفعل؛ أي: فصلنا ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾. وقيل: على الحال، أي: ﴿ فَصَّلْتُ آيَاتَهُ ﴾ في حال كونه ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾. وقيل: لما شغل ﴿ فَصَّلْتُ ﴾ بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل انتصب ﴿ قُرْءَانًا ﴾ لوقوع البيان عليه. وقيل: على القطع. ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قال الضحاك: أي إن القرآن منزل من عند الله. وقال مجاهد: أي يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وقيل: يعلمون العربية فيعجزون عن مثله ولو كان غير عربي لما علموه.

قلت: هذا أصح، والسورة نزلت تقريحا وتوبيحا لقريش في إعجاز القرآن.

قوله تعالى: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ حالان من الآيات والعامل فيه ﴿ فَصَّلْتُ ﴾. وقيل: هما نعتان للقرآن ﴿ بَشِيرًا ﴾ لأولياء الله ﴿ نَذِيرًا ﴾ لأعدائه. وقرئ « بشيرٌ ونذيرٌ » صفة للكتاب. أو خير مبتدأ محذوف ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ يعني أهل مكة ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماعا ينتفعون به. وروي أن الريان بن حرملة قال: قال الملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمر محمد، فلو التستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم اتانا ببيان من أمره؛ فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر، وعلمت من ذلك علما لا يخفى غلي إن كان كذلك. فقالوا: إيته فحدثه. فأتى النبي ﷺ فقال له: يا محمد أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت

خير أم عبد الله؟ فيم تشتم ألهتنا، وتضلل آباءنا، وتسفه أحلامنا، وتذم ديننا؟ فإن كنت إنما تريد الرياسة عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أي بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو تغلب فيك.

والنبي ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: «قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. فقال: «يا ابن أخي اسمع» قال: أسمع. قال: ﴿حَمَّ (١) تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فوثب عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ، وناشده الله والرحم ليسكنن، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فجاءه أبو جهل؛ فقال: أصبوت إلى محمد؟ أم أعجبك طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا، ثم قال: والله لقد تعلمون أنني من أكثر قريش مالا، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] وأمست بفيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب؛ يعني الصاعقة (١). وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب الرد له عن محمد بن كعب القرظي، وأن النبي ﷺ قرأ: ﴿حَمَّ (١) تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ﴾ حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعتبة مصغ يستمع، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره. فلما قطع رسول الله ﷺ القراءة قال له: «يا أبا الوليد قد سمعت الذي قرأت عليك فأنت وذاك» فانصرف عتبة إلى قريش في نادية فقالوا: والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضى به من عندكم. ثم قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله لقد سمعت كلاما من محمد ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة، فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي؛ خلوا محمدا وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ، فان أصابته العرب كفيتموه بأيدي غيركم، وإن كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس به؛ لأن ملكه ملككم، وشرفه شرفكم. فقالوا: هيهات سحرك محمد يا أبا الوليد. وقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما شئتم (٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ الاكنة: جمع كنان وهو الغطاء. وقد مضى في «البقرة» (٣). قال مجاهد: الكنان للقلب كالجنة للنبيل (٤). ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صمم؛ فكلامك لا يدخل أسماعنا، وقلوبنا مستورة من فهمه. ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: خلاف في الدين، لأنهم يعبدون الأصنام وهو يعبد الله عز وجل. قال معناه الفراء وغيره. وقيل: ستر مانع عن الإجابة. وقيل: إن

(١) ضعيف: الحاكم (٢/ ٢٧٨) في المستدرک، والدارمي (١/ ٢٤) في سننه، والهيشمي (٦/ ٢٠) في المجمع وعزاه لأبي يعلى.

قلت: وهو موصول من طريق اللذالي بن حرملة، عن جابر، لكن في إسنادهم جميعاً: الأجلح الكندي وقد ضعف بعض الشيء - كما قال ابن كثير (٧/ ١٢٣) في التفسير، وكذا قال الهيشمي (٦/ ٢٠) في المجمع. قلت: لكن الخبر مشهور عند أهل السير.

(٢) مرسل: وانظر السابق، وتفسير البغوي (٧/ ١٦٨). (٣) عند الآية (٨٨).

(٤) صحيح إليه: الطبري (٢٤/ ٩٠) في تفسيره.

أبا جهل استغشى على رأسه ثوبا وقال: يا محمد بيننا وبينك حجاب. استهزاء منه. حكاة النقاش وذكره القشيري. فالحجاب هنا الثوب. ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أي اعمل في هلاكنا فإننا عاملون في هلاكك؛ قاله الكلبي. وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإننا نعمل لألهتنا التي نعبدها. وقيل: اعمل بما يقتضيه دينك، فإننا عاملون بما يقتضيه ديننا. ويحتمل خامسا: فاعمل لأخرك فإننا نعمل لدينانا؛ ذكره الماوردي.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكَ الْوَحِيدُ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۗ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزُّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي لست بملك بل أنا من بني آدم. قال الحسن: علمه الله تعالى التواضع^(١). ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: من السماء على أيدي الملائكة ﴿أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فآمنوا به ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسألة إليه، كما يقول الرجل: استقم إلى منزلك؛ أي: لا تخرج على شيء غير القصد إلى منزلك. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾ أي: من شرككم. ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين لا يؤتون الزكاة قال ابن عباس: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله^(٢) وهي زكاة الأنفس. وقال قتادة: لا يقرون بالزكاة أنها واجبة^(٣). وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدقون ولا ينفقون في الطاعة^(٤). قرعهم بالشح الذي يأنف منه الفضلاء، وفيه دلالة على أن الكافر يعذب بكفر مع منع وجوب الزكاة عليه. وقال الفراء وغيره: كان المشركون ينفقون النفقات، ويسقون الحجيج ويطعمونهم، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ فهذا لا ينفقون في الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون. الزمخشري: فإن قلت: لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة؟

قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله، فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوح طوبته ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي يثبتون أنفسهم، ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلف قلوبهم إلا بلمظ^(٥) من الدنيا، فقويت عصبتهم ولانت شكيمتهم؛ وأهل الردة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فنصبت لهم الحروب وجوهدوا. وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقرن بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال ابن عباس: غير مقطوع^(٦)؛

(١) ذكره البيهقي (٧/ ١٦٤) في تفسيره بغير إسناد.

(٢) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس ورواه الطبري (٢٤/ ٩١) في تفسيره.

(٣) صحيح إلى قتادة: الطبري (٢٤/ ٩١). في تفسيره (٤) البيهقي (٧/ ٦٤) بغير إسناد.

(٥) لمظة: المراد بها الدنيا، أو اليسير منها اللسان لمظ.

(٦) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس. الطبري (٢٤/ ٩٢) في تفسيره، وفيه: غير منقوص.

مأخوذ من منتت الحبل: إذا قطعتة؛ ومنه قول ذي الإصبع:
إِنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَابِي بِذِي عَلَقٍ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا خَيْرِي بِمَمْنُونٍ
وقال آخر:

فَتَرَى حَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَقْفِ
ع مَنِينَا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ

يعني بالمنين: الغبار المنقطع الضعيف. وعن ابن عباس أيضا ومقاتل: غير منقوص. ومنه المنون؛ لأنها تنقص منه الإنسان، أي: قوته؛ وقال قطرب؛ وأنشد قول زهير:
فَضَّلَ الْجِيَادَ عَلَى الْخَيْلِ الْبِطَاءِ فَلَا يُعْطِي بِذَلِكَ مَمْنُونًا وَلَا نَرْقًا
قال الجوهري: والمن القطع، ويقال: النقص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وقال لبيد:

غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا

وقال مجاهد: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير محسوب (٢). وقيل: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم به. قال السدي: نزلت في الزماني والمرضى والهرمي إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه (٣).

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿١﴾ ثُمَّ اسْتَوَى
إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٢﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ لَلذُّنُوبِ بِمَصْدِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ ﴿أَيْنَكُمْ﴾ بهمزتين الثانية بين بين و«أئنكم» بألف بين همزتين وهو استفهام معناه التوبيخ. أمره بتوبيخهم والتعجب من فعلهم، أي: لم تكفرون بالله وهو خالق السموات والأرض؟! ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ الأحد والاثنين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا﴾ أي: أصدقاء وشركاء ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا﴾ يعني الجبال. وقال وهب: لما خلق الله الأرض مادته على وجه الماء؛ فقال لجبريل: ثبتها يا جبريل. فنزل فأمسكها فغلبته الرياح، قال: يا رب أنت أعلم لقد غلبت فيها فثبتها بالجبال وأرسلها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع (٤). قال السدي: أنبت فيها شجرها (٥). ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا﴾ قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم (٦). وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء

(١) انظر: الطبري (٩٢/٢٤) في تفسيره. (٢) صحيح إليه: الطبري (٩٢/٢٤) في تفسيره.

(٣) معضل لا يصح.

(٤) معضل: وهب من كبار رواة الإسرائيليات، ومثل هذا يحتاج إلى وحي وأين هو هنا؟ لا جرم أن الأمر هنا مردود على صاحبه.

(٥، ٦) صحيح إليهما: الطبري (٩٤/٢٤) في تفسيره.

والأربعاء (١). وقال عكرمة والضحاك: معنى «وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا» أي: أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد (٢). قال عكرمة: حتى إنه في بعض البلاد ليتبايعون الذهب بالملح مثلاً بمثل (٣). وقال مجاهد والضحاك: السابري من سابور، والطيايسة من الري، والحبر اليمانية من اليمن (٤). «فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» يعني في تمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً؛ أي في تمة خمسة عشر يوماً. قال معناه ابن الأنباري وغيره. «سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ» قال الحسن: المعنى في أربعة أيام مستوية تامة (٥). الفراء: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى: وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين. واختاره الطبري. وقرأ الحسن، البصري ويعقوب الحضرمي «سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ» بالجر (٦) وعن ابن القعقاع: «سواء» بالرفع (٧)؛ فالنصب على المصدر و«سواء» بمعنى استواء أي استوت استواء. وقيل: على الحال والقطع؛ والجر على النعت لأيام أو لأربعة أي «فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» مستوية تامة. والرفع على الابتداء والخبر «لِلْسَّائِلِينَ» أو على تقدير هذه «سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ». وقال أهل المعاني: معنى «سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ» ولغير السائلين؛ أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويعطي من سأل ومن لا يسأل.

قوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» أي: عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها. والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقواق؛ يدل عليه قوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ» (٨) [البقرة: ٢٩] وقد مضى القول هناك. وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» يعني صعد أمره إلى السماء (٩)؛ وقاله الحسن. ومن قال: إنه صفة ذاتية زائدة قال: استوى في الأزل بصفاته (١٠). و«ثُمَّ» ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة. وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس؛ على ما مضى في «البقرة» عن ابن مسعود (١١) وغيره. «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا» أي جيئتا بما خلقت فيكما من المنافع والمصالح وأخرجها لخلقها. قال ابن عباس: قال الله تعالى للسماء: أطلعي شمسك وقمرك وكواكبك، واجري رياحك وسحابك، وقال للأرض: شقي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين (١٢) «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» في الكلام حذف أي أتينا أمرك «طَائِعِينَ». وقيل: معنى هذا الأمر التسخير؛ أي: كونا فكانتا كما قال تعالى: «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [النحل: ٤]. فعلى هذا قال ذلك قبل خلقهما. وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما. وهو قول الجمهور. وفي قوله تعالى لهما وجهان: أحدهما أنه

(١) وهو قول السدي أيضاً كما عند الطبري (٢٤ / ٩٦) في تفسيره، وقوله: الثلاثاء والأربعاء، وهذا لا يصح وقد سبق.

(٢) ذكرها الطبري (٢٤ / ٩٥) في تفسيره بأسانيد فيها نظر، وهو صحيح إلى عكرمة، والله أعلم.

(٦، ٧) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص ١٧٠).

(٨، ٩) ضعيفان: سبقا.

(١٠) وعقيدتنا: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب.

(١١) حسن: سبق تخريجه.

(١٢) ضعيف: فيه يحيى بن يمان، ضعيف، وكذلك أبو هشام الرفاعي، وفيه تدليس ابن جريج، ورواه الطبري

(٢٤ / ٩٧) في تفسيره.

قول تكلم به^(١). الثاني أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد؛ ذكره الماوردي. ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فيه أيضا وجهان: أحدهما: أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما، ومنه قول الراجز:

امتلاً الحوضُ وقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني

يعني ظهر ذلك فيه. وقال أكثر أهل العلم: بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى. قال أبو نصر السكسكي: فنطق من الأرض موضع الكعبة، ونطق من السماء ما بحياها، فوضع الله تعالى فيه حرمه. وقال: ﴿طَائِعِينَ﴾ ولم يقل: طائعتين على اللفظ ولا طائعات على المعنى؛ لأنهما سموات وأرضون، لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما، وقيل: لما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من صفات من يعقل أجراهما في الكناية مجرى من يعقل، ومثله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقد تقدم. وفي حديث: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب لو أن السموات والأرض حين قلت لهما: ﴿أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ عصياك ما كنت صانعا بهما؟ قال كنت أمر دابة من دوابي فتبتلعهما. قال: يا رب وأين تلك الدابة؟ قال: في مرج من مروجي. قال: يا رب وأين ذلك المرج؟ قال علم من علمي. ذكره الثعلبي^(٢). وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة «أتيا» بالمد والفتح. وكذلك قوله: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ على معنى أعطيا الطاعة من أنفسكما ﴿فَقَالَتَا﴾ أعطينا ﴿طَائِعِينَ﴾ فحذف المفعولين جميعا. ويجوز وهو أحسن أن يكون ﴿أَتَيْنَا﴾ فاعلنا فحذف مفعول واحد. ومن قرأ «أتينا» فالمعنى جئنا بما فينا؛ على ما تقدم بيانه في غير ما موضع والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي أكملهن وفرغ منهن. وقيل: أحكمهن كما قال:

وعلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَّ السَّوَابِغُ تَبِعُ

﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ سوى الأربعة الأيام التي خلق فيها الأرض، فوقع خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] على ما تقدم في «الأعراف» بيانه. قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون^(٣). وعن عبد الله بن سلام قال: خلق الله الأرض في يومين، وقدر فيها أوقاتها في يومين، وخلق السموات في يومين؛ خلق الأرض في يوم الأحد والاثنين، وقدر فيها أوقاتها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخلق السموات في يوم الخميس ويوم الجمعة، وأخر ساعة في يوم الجمعة خلق الله آدم في عجل، وهي التي تقوم فيها الساعة، وما خلق الله من دابة إلا وهي تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن^(٤). وعلى هذا أهل التفسير؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق الله التربة يوم السبت...» الحديث^(٥)، وقد تكلمنا على إسناده في أول سورة

(١) وهو كلام أمر به سبحانه السماء والأرض، كما هو واضح في سياق الآيات.

(٢) الخبر من الإسرائيليات ولا علم لنا به.

(٣) لم أجده مستداً.

(٤) ضعيف: أبو الشيخ (٤/ ١٣٦٦) في العظمة، وفي السند: أبو معشر وهو نجيح السندي ضعيف.

(٥) صحيح: وقد سبق.

«الأنعام»^(١). ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ قال قتادة والسدي: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها، وخلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد والثلوج^(٢). وهو قول ابن عباس؛ قال: ولله في كل سماء بيت تحج إليه وتطوف به الملائكة بحذاء الكعبة، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور^(٣). وقيل: أوحى الله في كل سماء؛ أي أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها. والإيحاء قد يكون أمراً؛ لقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١] أي: أمرتهم وهو أمر تكوين.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ أي بكواكب تضيء وقيل: إن في كل سماء كواكب تضيء. وقيل: بل الكواكب مختصة بالسماء الدنيا. ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: وحفظناها حفظاً؛ أي من الشياطين الذين يسترقون السمع. وهذا الحفظ بالكواكب التي ترجم بها الشياطين على ما تقدم في «الحجر»^(٤) بيانه. وظاهر هذه الآية يدل على أن الأرض خلقت قبل السماء. وقال في آية أخرى: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [التارعات: ٢٧] ثم قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [التارعات: ٣٠] وهذا يدل على خلق السماء أولاً. وقال قوم: خلقت الأرض قبل السماء؛ فاما قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [التارعات: ٣٠] فالدحو غير الخلق، فالله خلق الأرض ثم خلق السموات، ثم دحا الأرض، أي: مدها وبسطها؛ قاله ابن عباس. وقد مضى هذا المعنى مجوداً في «البقرة»^(٥) والحمد لله. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لآنزل ملكاً فإنا بما أرسلتم به كافرون] ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً في أيام نحسات لثديتهم عذاب الخبز في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون] ﴿

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني كفار قريش عما تدعوهم إليه يا محمد من الإيمان. ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: خوفتكم هلاكاً مثل هلاك عاد وثمود. ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني من أرسل إليهم وإلى من قبلهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ موضع «أن» نصب بإسقاط الخافض أي بـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ قالوا: لو شاء ربنا لآنزل ملائكة بدل الرسل ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ من الإنذار والتبشير. قيل: هذا استهزاء منهم. وقيل: إقرار منهم بإرسالهم ثم بعده جحود وعناد.

(١) صحيح: الطبري (٢٤/ ٩٨) في تفسيره.

(٢، ٣) ضعيف: من قول ابن عباس، وقد سبق.

(٤) عند الآية (١٧) من سورة الحجر.

(٥) عند الآية (٢٩).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ استكبروا على عباد الله هود ومن آمن معه ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهددهم بالعذاب، وقالوا: نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا. وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم. وقد مضى في «الأعراف» عن ابن عباس: أن أطولهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعاً^(١). فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقدرة، وإنما يقدر العبد بإقدار الله؛ فالله أقدر إذا. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ أي: بمعجزاتنا يكفرون.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ هذا تفسير الصاعقة التي أرسلها عليهم، أي: ريحاً باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب. ويقال: أصلها صرر من الصر وهو البرد فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل؛ كقولهم: ككبوا، أصله كبسوا، وتجنف الثوب أصله تجنف. أبو عبيدة: معنى صرصر: شديدة عاصفة. عكرمة وسعيد بن جبير: شديد البرد. وأنشد قطرب قول الخطيئة:

المُطْعَمُونَ إِذَا هَبَّتْ بِصَرْصَرَةٍ
والخاملون إِذَا اسْتَوْدُوا عَلَى النَّاسِ

استودوا: إذا سئلوا الدية. مجاهد: الشديدة السموم^(٢). وروى معمر عن قتادة قال: باردة^(٣).

وقاله عطاء؛ لأن ﴿صَرْصِراً﴾ مأخوذ من صر^(٤) والصر في كلام العرب البرد كما قال:

لَهَا عُدْرٌ كَقُرُونِ النَّسَاءِ
رُكْبَنٌ فِي يَوْمِ رِيحِ وَصْرِ

وقال السدي: الشديدة الصوت^(٥). ومنه صر القلم والباب يصر صريراً أي: صوت. ويقال:

درهم صري وصري للذي له صوت إذا نقد. قال ابن السكيت: صرصر يجوز أن يكون من الصر وهو البرد، ويجوز أن يكون من صرير الباب، ومن الصرة وهي الصيحة. ومنه ﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]. وصرصر اسم نهر بالعراق. ﴿فِي أَيَّامِ نَحْسَاتٍ﴾ أي مشؤومات؛ قاله مجاهد وقاتدة^(٦). كن آخر شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء وذلك ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] قال ابن عباس: ما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء^(٧). وقيل: ﴿نَحْسَاتٍ﴾ باردات؛ حكاه النقاش. وقيل: متتابعات؛ عن ابن عباس^(٨) وعطية. الضحاك: شداد^(٩). وقيل: ذات غبار؛ حكاه ابن عيسى. ومنه قول الراجز:

قَدْ اغْتَدَى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ
لِلصَّيْدِ فِي يَوْمِ قَلِيلِ النَّحْسِ

قال الضحاك وغيره^(١٠): أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين، ودرت الرياح عليهم في غير

(١) سبق تضييف هذا الكلام، عند الآية (٦٩) من سورة الأعراف.

(٢) صحيح إيهما: الطبري (٢٤/ ١٠٠، ١٠١). في تفسيره.

(٤) سبق هذا.

(٥) صحيح إليه الطبري (٢٤/ ١٠١) في تفسيره.

(٦) صحيح إيهما: الطبري (٢٤/ ١٠١) في تفسيره.

(٧) هذا مردود وسيأتي - إن شاء الله.

(٨) ضعيف: رواه الطبري (٢٤/ ١٠١) في تفسيره، من طريق العوفيين.

(٩) فيه انقطاع: الطبري (٢٤/ ١٠٢) في تفسيره.

(١٠) البغوي (٧/ ١٦٩) في تفسيره غير مستند.

مطر، وخرج منهم قوم إلى مكة يستسقون بها للعباد، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة مسلمهم وكافرهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى، مختلفة أديانهم، وكلهم معظم لمكة، عارف حرمتها ومكانها من الله تعالى. وقال جابر بن عبد الله والتميمي: إذا أراد الله بقوم خيرا أرسل عليهم المطر وحبس عنهم كثرة الرياح، وإذا أراد الله بقوم شرا حبس عنهم المطر وسلط عليهم كثرة الرياح. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿نَحْسَاتٌ﴾ (١) بكسر الحاء، أي: ذوات نحس. وما يدل على أن النحس مصدر قوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] ولو كان صفة لم يصف اليوم إليه؛ وبهذا كان يحتج أبو عمرو على قراءته؛ واختاره أبو حاتم. واختار أبو عبيد القراءة الثانية وقال: لا تصح حجة أبي عمرو؛ لأنه أضاف اليوم إلى النحس فأسكن، وإنما كان يكون حجة لو نون اليوم ونعت وأسكن؛ فقال: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ [القمر: ١٩] وهذا لم يقرأ به أحد نعلمه. وقال المهدي: ولم يسمع في ﴿نَحْسٍ﴾ إلا الإسكان. قال الجوهري: قرئ في قوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ [القمر: ١٩] على الصفة، والإضافة أكثر وأجود. وقد نحس الشيء بالكسر فهو نحس أيضا؛ قال الشاعر:

أبلغ جذاما ولحما أن إختوتهم طيبا وبهرا قوم نصرهم نحس

ومنه قيل: أيام نحسات. ﴿لَنَذِيْقَهُمْ﴾ أي: لكي نذيقهم ﴿عَذَابِ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: العذاب بالريح العقيم. ﴿وَلَعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: أعظم وأشد.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٣﴾ وَنَحْنُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي بينا لهم الهدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وغيرهما «وأما ثمود» بالنصب، وقد مضى الكلام فيه في «الأعراف» ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان. وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان (٢). السدي: اختاروا المعصية على الطاعة (٣). ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ ﴿الهُونُ﴾ بالضم الهوان. وهون بن خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر أخو كنانة وأسد. وأهانته: استخف به. والاسم الهوان والمهانة. وأضيف الصاعقة إلى العذاب، لأن الصاعقة اسم للمبيد المهلك، فكأنه قال مهلك العذاب؛ أي: العذاب المهلك. والهون وإن كان مصدرا فمعناه الإهانة والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفا للآخر؛ فكأنه قال: صاعقة الهون. وهو كقولك: عندي علم اليقين، وعندي العلم اليقين. ويجوز أن يكون الهون اسما مثل الدون؛ يقال: عذاب هون، أي: مهين؛ كما قال: ﴿مَا لَيْبُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبا: ١٤]. وقيل: أي صاعقة العذاب ذي الهون. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة، على ما تقدم. ﴿وَنَحْنُ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يعني صالحا ومن آمن

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٠).

(٢) البغوي (٧/ ١٦٩) في تفسيره.

(٣) صحيح: الطبري (٢٤/ ١٠٣) في تفسيره.

به؛ أي: ميزناهم عن الكفار، فلم يحل بهم ما حل بالكفار، وهكذا يا محمد نفعنا بمؤمني قومك وكفارهم.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِرَشِيدَتُنَا وَقَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ
خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ قرأ نافع: «نحشر» بالنون (١) «أعداء» بالنصب. الباقون «يُحْشَرُ» بياء مضمومة «أعداء» بالرفع ومعناها بين. وأعداء الله: الذين كذبوا رسوله وخالفوا أمره. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يساقون ويدفعون إلى جهنم. قال قتادة والسدي: يجس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدة بدئ بالأكابر فالأكابر جرما. وقد مضى في «النمل» (٢) الكلام في «يوزعون» [النمل: ١٧] مستوفى.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ «مَا» زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الجلود يعني بها الجلود أعيانها في قول أكثر المفسرين. وقال السدي وعبيد الله بن أبي جعفر والفراء: أراد بالجلود الفروج؛ وأنشد بعض الأدياء لعامر بن جوية:

المرء يسعى للسلا مة والسلامة حسبه
أو سالم من قد تشى جلده وبيض رأسه

وقال: جلده كناية عن فرجه. ﴿وَقَالُوا﴾ يعني الكفار ﴿لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ وإنما كنا نجادل عنكم: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لما خاطبت وخوطبت أجريت مجرى من يعقل. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ركب الحياة فيكم بعد أن كنتم نطقا، فمن قدر عليه قدر على أن ينطق الجلود وغيرها من الأعضاء. وقيل: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ابتداء كلام من الله. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرنى من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول فإنني لا أجزى على نفسي إلا شاهدا مني قال: يقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتين شهودا قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي فتنتطق بأعماله قال: ثم يخلي بينه وبين الكلام قال فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل» (٢) وفي حديث أبي هريرة ثم يقال: «الآن نبعث شاهدا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنتطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق، وذلك الذي سخط الله عليه» (٣) خرجه أيضا مسلم.

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٠).

(٢) صحيح: مسلم (٢٩٦٩) في الزهد والرقائق.

(٣) صحيح: عبد الرزاق (٢٥٧١) في تفسيره.

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٦) وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ (٢٧) وَقَبَضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَذَرْتُوهُمَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الجوارح لهم، ويجوز أن يكون من قول الله عز وجل أو الملائكة. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر: قرشيان، وثقفي، أو ثقفيان، وقرشي؛ قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا؛ وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ ﴾ (١) الآية؛ وخرجه الترمذي فقال: اختصم عند البيت ثلاثة نفر. ثم ذكره بلفظه حرفا حرفا وقال: حديث حسن صحيح؛ حدثنا هناد قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبدالرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم، قرشي وختناه ثقفيان، أو ثقفوي وختناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه؛ فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفع أصواتنا لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله، فقال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٦) وَذَلِكَ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿ قال: هذا حديث حسن صحيح (٢). قال الثعلبي: والثقفوي عبد ياليل، وختناه ربيعة وصفوان بن أمية. ومعنى ﴿ تَسْتَرُونَ ﴾ تستخفون في قول أكثر العلماء؛ أي: ما كنتم تستخفون من أنفسكم حذرا من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يخفي من نفسه عمله، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية. وقيل: الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي: ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحكم في الآخرة فستركوا المعاصي خوفا من هذه الشهادة. وقال معناه مجاهد (٣). وقال قتادة: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ ﴾ أي: تظنون ﴿ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ بأن يقول: سمعت الحق وما وعيت وسمعت ما لا يجوز من المعاصي (٤) ﴿ وَلَا أَبْصَارُكُمْ ﴾ فتقول: رأيت آيات الله وما اعتبرت

(١) متفق عليه: البخاري (٤٨١٦) في التفسير، ومسلم (٢٧٧٥) في صفات المنافقين، وختنته: زوج أخته، أو زوج ابنته بفتح الحاء.

(٢) حسن صحيح: الترمذي (٣٢٤٩) في التفسير، وصححه الألباني هناك.

(٣) قال الطبري: تتقون ورواه بسنده عن مجاهد (١٠٧ / ٢٤) في تفسيره.

(٤) صحيح إلى قتادة: الطبري (١٠٧ / ٢٤) في تفسيره بنحوه.

ونظرت فيما لا يجوز ﴿وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ تقدم. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم فجادلتم على ذلك حتى شهدت عليكم جوارحكم بأعمالكم. روى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تدعون يوم القيامة مفدمة أفواهكم بفدام»^(١)، فأول ما يبين عن الإنسان فخذة وكفه»^(٢) قال عبد الله بن عبد الأعلى الشامي فأحسن:

العُمُرُ يَنْقُصُ وَالذُّنُوبُ تَزِيدُ وَقَالَ عَثْرَاتُ الْفَتَى فَيَعُودُ
هل يستطيعُ جُحُودَ ذَنْبٍ وَاحِدٍ رَجُلٌ جَوَارِحُهُ عَلَيْهِ شُهُودُ
والمرءُ يسأل عن سِنِيهِ فَيَسْتَهِي تَقْلِيلَهَا وَعَنِ الْمَمَاتِ يَحِيدُ

وعن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادي فيه: يا ابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل غدا عليك شهيد، فاعمل في خيرا أشهد لك به غدا فإني لو قد مضيت لم ترني أبدا ويقول الليل مثل ذلك»^(٣) ذكره أبو نعيم الحافظ وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة» في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال. وقال محمد بن بشير فأحسن:

مَضَى أَمْسُكَ الْأَدْنَى شَهِيدًا مَعْدَلًا وَيَوْمُكَ هَذَا بِالْفِعَالِ شَهِيدُ
فَإِنْ تَكُ بِالْأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إِسَاءَةً فَتَنْنُ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدُ
وَلَا تُرْجُ فِعْلُ الْخَيْرِ مِنْكَ إِلَى غَدٍ لَعَلَّ غَدًا يَأْتِي وَأَنْتَ فَقِيدُ

قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ﴾ أي: أهلككم فأوردكم النار. قال قتادة: الظن هنا بمعنى العلم. وقال النبي ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله، فإن قوما أساؤوا الظن بربهم فأهلكهم»^(٤) فذلك قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ﴾. وقال الحسن البصري: إن قوما ألتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي وكذب، ولو أحسن الظن لأحسن العمل، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٥). وقال قتادة: من استطاع منكم أن يموت وهو حسن الظن بربه فليفعل، فإن الظن اثنان: ظن ينجي وظن يردي^(٦). وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يدمنون المعاصى ولا يتوبون منها ويتكلمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس، ثم قرأ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٧).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي: فإن يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مشوى لهم. نظيره ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] على ما تقدم. ﴿وَإِنْ يَسْتَعْجِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ

(١) المعنى: أنهم يُمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم. النهاية (٤٢١/٣) لابن الأثير.

(٢) صحيح: وقد سبق.

(٣) ضعيف: أبو نعيم (٢/٣٠٣) في الحلية، وضعفه.

(٤) صحيح: وقد سبق.

(٥) سبق قبل ذلك، وانظر: تفسير ابن كثير (٧/١٣١)، وسنده حسن.

(٦) انظر السابق.

(٧) لم أجده مستندا.

الْمُعْتَبِينَ ﴿ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ مَقِيمُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ ﴾ ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ . وقيل: المعنى ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا ﴾ في النار أو يجزعوا ﴿فَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ﴾ أي: لا محيص لهم عنها، ودل على الجزع قوله: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْتَبُوا﴾ لأن المستعتب جزع والمعتب المقبول عتابه؛ قال النابغة:

فَإِنْ أَكُ مَطْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ وَإِنْ تَكُ ذَا عَتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتَبُ

أي: مثلك من قبل الصلح والمراجعة إذا سئل. قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجودة. تقول: عاتبته معاتبه، وبينهم أعتوبة يتعاتبون بها. يقال: إذا تعاتبوا أصلح ما بينهم العتاب. وأعتبني فلان: إذا عاد إلى مسرتي راجعا عن الإساءة، والاسم منه العتبي، وهو رجوع العتوب عليه إلى ما يرضي العاتب. واستعتب وأعتب بمعنى، واستعتب أيضا طلب أن يعتب؛ تقول: استعتبته فأعتبني أي: استرضيته فأرضاني. فمعنى ﴿وَأَنْ يَسْتَعْتَبُوا﴾ أي: طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لا بد لهم من النار. وفي التفسير: وإن يستقبلوا ربهم فما هم من المقالين. وقرأ عبيد بن عمير وأبو العالية: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْتَبُوا﴾ فتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول «فما هم من المعتبين» بكسر التاء أي: إن أقالهم الله وردهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لما سبق لهم في علم الله من الشقاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ذكره الهروي. وقال ثعلب: يقال: أعتب: إذا غضب، وأعتب: إذا رضي.

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ قال النقاش: أي هيأنا لهم شياطين. وقيل: سلطنا عليهم قرناء يزينون عندهم المعاصي، وهؤلاء القرناء من الجن والشياطين ومن الإنس أيضا؛ أي: سببنا لهم قرناء؛ يقال: قيض الله فلانا لفلان، أي: جاءه به وأتاحه له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾. القشيرى: ويقال: قيض الله لي رزقا أي أتاحه كما كنت أطلبه، والتقييض الإبدال ومنه المقايضة، قايضت الرجل مقايضة أي: عاوضته بمتاع، وهما قيطان كما تقول: يبعان. ﴿فَرَيُّوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا فحسوه لهم حتى آثروه على الآخرة: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ حسنوا لهم ما بعد مماتهم ودعوهم إلى التكذيب بأمور الآخرة؛ عن مجاهد. وقيل: المعنى ﴿قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ في النار ﴿فَرَيُّوا لَهُمْ﴾ أعمالهم في الدنيا؛ والمعنى قدرنا عليهم أن ذلك سيكون وحكمنا به عليهم. وقيل: المعنى أحوجناهم إلى الأقران؛ أي أحوجنا الفقير إلى الغني لينال منه، والغني إلى الفقير ليستعين به فزين بعضهم لبعض المعاصي. وليس قوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عطفًا على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ بل المعنى وأنسوهم ما خلفهم ففيه هذا الإضممار. قال ابن عباس: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ تكذيبهم بأمور الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ التسويف والترغيب في الدنيا^(١). الزجاج: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما عملوه ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما عزموا على أن يعملوه. وقد تقدم قول مجاهد. وقيل: المعنى لهم مثل ما تقدم من المعاصي ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما يعمل بعدهم. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي: وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم. وقيل ﴿فِي﴾ بمعنى مع؛ فالمعنى هم داخلون مع الأمم الكافرة قبلهم فيما دخلوا فيه. وقيل: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ في جملة أُمم، ومثله قول الشاعر:

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْفُوكًا فَوَكَّا فَنِي آخِرِينَ قَدْ أَفُوكَا

يريد فانت في جملة آخرين لست في ذلك بأوحد. ومحل ﴿فِي أُمَّمٍ﴾ النصب على الحال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: حق عليهم القول كائنين في جملة أمم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أعمالهم في الدنيا وأنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَلَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْمَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ لما أخبر تعالى عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركي قريش وأنهم كذبوا القرآن فقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾. وقيل: معنى ﴿لَا تَسْمَعُوا﴾ لا تطيعوا؛ يقال: سمعت لك أي أطعتك. ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدرى ما يقول. وقيل: إنهم فعلوا ذلك لما أعجزهم القرآن. وقال مجاهد: المعنى ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ بالكاء والتصفيق والتخليط في المنطق حتى يصير لغوا^(١). وقال الضحاك: أكثروا الكلام ليختلط عليه ما يقول. وقال أبو العالية وابن عباس أيضا: قعوا فيه وعيبه^(٢). ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ محمدا على قراءته فلا يظهر ولا يستميل القلوب. وقرأ عيسى بن عمر والجدري وابن أبي إسحاق وأبو حيوة وبكر بن حبيب السهمي «والقوا» بضم الغين وهي لغة من لغا يلغوا. وقراءة الجماعة من لغى يلغى. قال الهروي: وقوله: ﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾ قيل: عارضوه بكلام لا يفهم. يقال: لغوت الغو والغى، ولغى يلغى ثلاث لغات. وقد مضى معنى اللغو في «البقرة»^(٣) هو ما لا يعلم له حقيقة ولا تحصيل.

قوله تعالى: ﴿فَلَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قد تقدم أن الذوق يكون محسوسا، ومعنى العذاب الشديد: ما يتوالى فلا ينقطع. وقيل: هو العذاب في جميع أجزائهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ولنجزينهم في الآخرة جزاء قبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا. وأسوأ الأعمال الشرك. ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾ أي ذلك العذاب الشديد، ثم بينه بقوله ﴿النَّارُ﴾ وقرأ ابن عباس «ذلك جزاء أعداء الله النار دار الخلد» فترجم بالدار عن النار وهو مجاز الآية. و﴿ذَلِكَ﴾ ابتداء و﴿جَزَاءُ﴾ الخبر و﴿النَّارُ﴾ بدل من «جزاء» أو خبر مبتدأ مضمرة، والجملة في موضع بيان للجملة الأولى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني في النار فذكره بلفظ الماضي والمراد المستقبل ﴿رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ يعني إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه. عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما^(٤)؛ ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع: «ما من مسلم يقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من ذنبه

(١) صحيح إليه: الطبري (٢٤/ ١١١) في تفسيره.

(٢) انظر: فتح القدير (٦/ ٣٥٢) للشوكاني بنحوه.

(٣) عند الآية (٢٢٥).

(٤) وهو قول علي - رضي الله عنه - بأسانيد يشد بعضها بعضا، وانظر: الطبري (٢٤/ ١١٢) في تفسيره، والدر

المنثور (٥/ ٦٨١) للسيوطي.

لانه أول من سن القتل» خرجه الترمذي (١) ، وقيل: هو بمعنى الجنس وبني على التثنية لاختلاف الجنسين. ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَدْنَانَا﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ في النار وهو الدرك الأسفل سألوا أن يضعف الله عذاب من كان سبب ضلالتهم من الجن والإنس. وقرأ ابن محيصن والسوسي عن أبي عمرو وابن عامر وأبو بكر والمفضل: «أرْنَا» بإسكان الراء، وعن أبي عمرو أيضا باختلاسها. وأشيع الباكون كسرتها (٢) ، وقد تقدم في «الأعراف» (٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَخْزُونَ وَأُنِيرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٥﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿١٦﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال عطاء عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ وذلك أن المشركين قالوا ربنا الله والملائكة بناته وهؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ فلم يستقيموا. وقال أبو بكر: ربنا الله وحده لا شريك له ومحمد ﷺ عبده ورسوله؛ فاستقام (٤). وفي الترمذي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: «قد قال الناس ثم كفر أكثرهم فمن مات عليها فهو ممن استقام» (٥) قال: حديث غريب. ويروى في هذه الآية عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي معنى «استقاموا» (٦)؛ ففي صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفي رواية - غيرك. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم» (٧) زاد الترمذي قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه وقال: «هذا» (٨). وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ لم يشركوا بالله شيئاً (٩). وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه: ما تقولون في هاتين الآيتين ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ و﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ فقالوا: استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة؛ فقال أبو بكر: لقد حملتموها على غير المحمل ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشْرِكٍ﴾ «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» (١٠). وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر وهو يخطب ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فقال: استقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يرغوا

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) قراءات متواترة : تقريب النشر (ص ٩٤) .

(٣) هكذا في المطبوعات ، والصواب: «البقرة» ، وهو وهم من النسخ؛ لأن القرطبي رحمه الله ذكر ذلك عند تفسيره للآية (١٢٨) من سورة البقرة ، وليس في الأعراف شيء من هذا

(٤) انظر التالي .

(٥) غريب : الترمذي (٣٢٥٠) في التفسير ، وضعفه الالباني هناك ، و(١١٤٧٠) في الكبرى عند النسائي

(٦) ضعيف : رواه بصيغة التمریض .

(٧) ، (٨) صحيحان : وقد سبقا ، وانظر : مسلم (٣٨) في الإيمان .

(٩) ضعيف : فيه سعيد بن مهران ، مجهول ، وعامر بن سعد : مقبول إذا توبع ، وإلا فهو لين ، وقد توبع فما بعده شاهد له ، انظر : الطبري (٢٤ / ١١٤) .

(١٠) رجاله ثقات : إذا كان الأسود قد سمع من أبي بكر ، وانظر الطبري (٢٤ / ١١٤) في تفسيره .

روغان الثعالب^(١). وقال عثمان رضي الله عنه: ثم أخلصوا العمل لله^(٢). وقال علي رضي الله عنه: ثم أدوا الفرائض^(٣). وأقوال التابعين بمعناها. قال ابن زيد وقاتدة: استقاموا على الطاعة لله^(٤). الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته^(٥). وقال مجاهد وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا^(٦). وقال سفيان الثوري: عملوا على وفاق ما قالوا^(٧). وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله^(٨). وقال الفضيل بن عياض: زهدوا في الفانية ورجعوا في الباقية^(٩). وقيل: استقاموا إسرارا كما استقاموا إقرارا. وقيل: استقاموا فعلا كما استقاموا قولاً. وقال أنس: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «هم أمتي ورب الكعبة»^(١٠). وقال الإمام ابن فورك: السين سين الطلب مثل استسقى أي سألوا من الله أن يشبههم على الدين. وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة^(١١).

قلت: وهذه الأقوال وإن تداخلت فتلخيصها: اعتدلوا على طاعة الله عقدا وقولا وفعلا، وداموا على ذلك.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال ابن زيد ومجاهد^(١٢): عند الموت. وقال مقاتل وقاتدة: إذا قاموا من قبورهم للبعث^(١٣). وقال ابن عباس: هي بشرى تكون لهم من الملائكة في الآخرة^(١٤). وقال وكيع وابن زيد: البشرى في ثلاثة مواطن عند الموت وفي القبر وعند البعث^(١٥). ﴿أَلَا تَخَافُوا﴾ أي: «بالأ تخافوا» فحذف الجار. وقال مجاهد: لا تخافوا الموت^(١٦). وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول، وقال عكرمة ولا تخافوا أمامكم، ولا تحزنوا على ذنوبكم. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ على أولادكم فإن الله خليفتم عليكم. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تحزنوا على ذنوبكم فإني أغفرها لكم^(١٧). وقال عكرمة: لا تحزنوا على ذنوبكم^(١٨).

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي تقول لهم الملائكة الذين تنزل عليهم بالبشارة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ قال مجاهد: أي نحن قرناؤكم الذين كنا معكم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قالوا لا نفارقكم حتى ندخلكم الجنة^(١٩). وقال السدي: أي نحن الحفظة لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة^(٢٠). ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى: واللّه ولي المؤمنين ومولاهم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: من الملاذ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ تسألون وتتمنون. ﴿نَزْلًا﴾ أي رزقا وضيافة من الله الغفور الرحيم. وقد تقدم في «آل عمران»^(٢١). وهو منصوب على المصدر، أي أنزلناه نزلا. وقيل: على الحال. وقيل: هو جمع نازل، أي لكم ما تدعون نازلين، فيكون حالا من الضمير

(١) منقطع: بين الزهري وعمر، وانظر ابن كثير (٧/ ١٣٣) في التفسير.

(٢ - ٩) ابن كثير (٧/ ١٣٣) في التفسير، وفتح القدير (٦/ ٣٥٣)، للشوكاني والدر المنثور (٥/ ٦٨١، ٦٨٢) للسيوطي.

(١٠) لم أجده بهذا اللفظ. (١١) صحيح: إليه: عبد الرزاق (٣/ ١٨٦) في تفسيره.

(١٢) صحيح إلهما: الطبري (٢٤/ ١١٥) في تفسيره.

(١٣ - ١٨) فتح القدير (٦/ ٣٥٣، ٣٥٤) للشوكاني.

(١٩) الطبري (٢٤/ ١١٦).

(٢٠) صحيح إلى السدي: الطبري (٢٤/ ١١٦) في تفسيره.

(٢١) عند الآية (١٩٨)

المرفوع في ﴿تَدْعُونَ﴾ أو من المجرور في ﴿لَكُمْ﴾ .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَا تَسْتَوِي
الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٥﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا أُوذُ حَضِرٍ عَظِيمٍ ﴿٦﴾ وَإِنَّمَا يَنزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ هذا توبيخ للذين تواصلوا باللغو في القرآن. والمعنى: أي كلام أحسن من القرآن، ومن أحسن قولاً من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. قال ابن سيرين والسدي وابن زيد والحسن: هو رسول الله ﷺ. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه^(١). وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد: نزلت في المؤذنين^(٢). قال فضيل بن رفيدة: كنت مؤذناً لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لي عاصم بن هبيرة: إذا أذنت فقلت: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، فقل: وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية^(٣)؛ قال ابن العربي: الأول أصح؛ لأن الآية مكية والأذان مدني؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى؛ لا أنه كان المقصود وقت القول، ويدخل فيها أبو بكر الصديق حين قال في النبي ﷺ وقد خنقه ملعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] وتتضمن كل كلام حسن فيه ذكر التوحيد والإيمان.

قلت: وقول ثالث وهو أحسنها. قال الحسن: هذه الآية عامة في كل من دعا إلى الله^(٤). وكذا قال قيس بن أبي حازم قال: نزلت في كل مؤمن^(٥). قال: ومعنى ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الصلاة بين الأذان والإقامة؛ وقاله أبو أمامة؛ قال: صلي ركعتين بين الأذان والإقامة^(٦). وقال عكرمة: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ صلى وصام^(٧). وقال الكلبي: أدى الفرائض^(٨).

قلت: وهذا أحسنها مع اجتناب المحارم وكثرة المندوب. والله أعلم.
قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال ابن العربي^(٩): وما تقدم يدل على الإسلام، لكن لما كان الدعاء بالقول والسيوف يكون للاعتقاد ويكون للحجة، وكان العمل يكون للبراء والإخلاص، دل على أنه لا بد من التصريح بالاعتقاد لله في ذلك كله، وأن العمل لوجهه.

(١) صحيح إلى ابن زيد، والحسن، والسدي: انظر: تفسير الطبري (٢٤ / ١١٧)، وعزاه السيوطي لابن المنذر

وعبد حميد من طريق ابن سيرين الدر المنثور (٥ / ٦٨٤)

(٢) عزاه السيوطي (٥ / ٦٨٤) في الدر لابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن مردويه.

(٣) رواه سعيد بن منصور كما في الدر (٥ / ٦٨٤) للسيوطي، قلت: ولا يصح، فلا توقيف له عن الكتاب أو السنة.

(٤، ٥) وهذا هو الصحيح: وعزاه السيوطي (٥ / ٦٨٤) في الدر لعبد بن حميد، وابن المنذر.

(٦ - ٨) فتح القدير (٦ / ٣٥٥) للشوكاني.

(٩) أحكام القرآن (٤ / ١٦٦٢) للقااضي ابن العربي المالكي.

مسألة: لما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل له: اشترط إن شاء الله، كان في ذلك رد على من يقول: أنا مسلم إن شاء الله.
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ قال الفراء: ﴿لَا﴾ صلة أي: «ولا تستوي الحسنة والسيئة»، وأنشد:

ما كان يرَضَى رسولُ اللَّهِ فعَلُهُمُ والطَّيِّبانِ أبو بكرٌ ولا عمرُ

أراد: أبو بكر وعمر؛ أي: لا يستوي ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشرك. قال ابن عباس: الحسنة لا إله إلا الله، والسيئة الشرك. وقيل: الحسنة الطاعة، والسيئة الشرك^(١). وهو الأول بعينه. وقيل: الحسنة المداراة، والسيئة الغلظة. وقيل: الحسنة العفو، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك: الحسنة العلم، والسيئة الفحش^(٢). وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الحسنة حب آل الرسول، والسيئة بغضهم.

﴿ادْفَعْ بِاللَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ﴾ نسخت بآية السيف^(٣)، وبقي المستحب من ذلك: حسن العشرة والاحتمال والإغضاء. قال ابن عباس: أي ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك^(٤). وعنه أيضا: هو الرجل يسب الرجل فيقول الآخر إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك. وكذلك يروى في الأثر: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال ذلك لرجل نال منه. وقال مجاهد ﴿بِاللَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني السلام إذا لقي من يعاديه؛ وقاله عطاء^(٥). وقول ثالث ذكره القاضي أبو بكر ابن العربي في الأحكام وهو المصافحة. وفي الأثر: «تصافحوا يذهب الغل»^(٦). ولم ير مالك المصافحة، وقد اجتمع مع سفيان فتكلما فيها فقال سفيان: قد صافح رسول الله ﷺ جعفرًا حين قدم من أرض الحبشة؛ فقال له مالك: ذلك خاص. فقال له سفيان: ما خص رسول الله ﷺ يخصنا، وما عمه يعمننا، والمصافحة ثابتة فلا وجه لإنكارها. وقد روى قتادة قال قلت لأنس: هل كانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم^(٧). وهو حديث صحيح. وفي الأثر: من تمام المحبة الأخذ باليد^(٨). ومن حديث محمد بن إسحاق وهو إمام مقدم، عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي، ففرع الباب فقام إليه رسول الله ﷺ عريانا بجر ثوبه - والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده - فاعتنقه وقبله.

قلت: قد روي عن مالك جواز المصافحة وعليها جماعة من العلماء. وقد مضى ذلك في

(١، ٢) زاد المسير (٥ / ٣٠٥) لابن الجوزي :

(٣) لا نسخ هنا ، والله أعلم .

(٤) لم أجده مسنداً .

(٥) انظر تفسير الطبري (٢٤ / ١١٨) عن عطاء .

(٦) ضعيف : وضعفه الألباني (٢٤٣٨) في ضعيف الجامع .

(٧) صحيح : البخاري (٦٢٦٣) في الاستئذان .

(٨) ضعيف : ضعيف الجامع (٢٤٧٩) عن أبي أمامة ولفظه: (تمام التحية) وعزاه الألباني - رحمه الله - هناك للحاكم

في الكنى . ورواه الترمذي (٢٧٣٠) في الاستئذان عن ابن مسعود ، وضعفه الألباني هناك .

«يوسف» وذكرنا هناك حديث البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودة بينهما ونصيحة إلا ألقىت ذنوبهما بينهما»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: قريب صديق. قال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان مؤذيا للنبي ﷺ، فصار له وليا بعد أن كان عدوا بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليا في الإسلام حميما بالقرابة^(٢). وقيل: هذه الآية نزلت في أبي جهل بن هشام، كان يؤذي النبي ﷺ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصفح عنه؛ ذكره الماوردي^(٣). والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾. وقيل: كان هذا قبل الأمر بالقتال. قال ابن عباس: أمره الله تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم^(٤). وروي أن رجلا شتم قنبرا مولى علي بن أبي طالب فناداه علي: يا قنبر دع شاتمك، واله عنه، ترضي الرحمن، وتسخط الشيطان، وتعاقب شاتمك، فما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه^(٥). وأنشدوا:

وَلَلْكَفُّ عَنْ شْتَمِ اللَّئِيمِ تَكْرُمًا
أَضْرَّ لَهُ مِنْ شْتَمِهِ حِينَ يُشْتَمُ

وقال آخر:

وَمَا شَيْءٌ أَحَبُّ إِلَى سَفِيهِ
إِذَا سَبَّ الْكَرِيمَ مِنَ الْجَوَابِ
مُتَارَكَةُ السَّفِيهِ بِلا جَوَابِ
أَشَدُّ عَلَى السَّفِيهِ مِنَ السَّبَابِ

وقال محمود الوراق:

سَأَلْتُمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ
فَمَا النَّاسَ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةِ
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَمَّ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَمَّ

﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾ يعني هذه الفعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى. وقيل: الكناية في ﴿يُلْقَاهَا﴾ عن الجنة؛ أي: ما يلقاها إلا الصابرون؛ والمعنى متقارب. ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيب وافر من الخير^(٦)؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد: الحظ العظيم: الجنة^(٧). قال الحسن: والله ما عظم حظ قط دون الجنة^(٨).

﴿وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ تقدم في آخر «الأعراف». ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من كيدِه وشرِه ﴿إِنَّهُ هُوَ

(١) ضعيف: عن ابن إسحاق وهو مدلس، وانظر: الترمذي (٢٧٣٢) في الاستئذان، وضعفه الألباني هناك.

(٢) حسن: وقد سبق، وانظر: صحيح الجامع (٥٧٧٧، ٥٧٧٨) للألباني - رحمه الله.

(٣، ٤) النكت والعيون (٥/ ١٨٢) للماوردي بلا سند، والبغوي (٧/ ١٧٤) في تفسيره.

(٥) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس، والطبري (٢٤/ ١١٨) في تفسيره.

(٦ - ٨) زاد المسير (٥/ ٣٠٥) لابن الجوزي بلا سند.

وأثر قتادة عند السيوطي (٥/ ٦٨٥) في الدر وعزاه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد.

السَّمِيعُ ﴿١٤٠﴾ لَا اسْتِعَاذَتَكَ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِأَفْعَالِكَ وَأَقْوَالِكَ .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْبُلُّ وَالنَّهَارُ وَاللَّيْلُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٤١﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ لَهُ ﴿١٤٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُنَى الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ علاماته الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وقد مضى في غير موضع. ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ نهى عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا خلقين فليس ذلك لفضيلة لهما في أنفسهما فيسحقان بها العبادة مع الله؛ لأن خالقهما هو الله ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورهما. ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ وصورهن وسخرهن؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار. وقيل: للشمس والقمر خاصة؛ لأن الاثنين جمع. وقيل: الضمير عائد على معنى الآيات: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وإنما أتت على جمع التثنية ولم يجر على طريق التثنية للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل. ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمُونَ﴾ أي: لا يملون عبادته. قال زهير:
سَمِتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ

مسألة: هذه الآية آية سجدة بلا خلاف؛ واختلفوا في موضع السجود منها. فقال مالك: موضعه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنه متصل بالأمر. وكان علي وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾. وقال ابن وهب والشافعي: موضعه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمُونَ﴾ لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامتثال. وبه قال أبو حنيفة. وكان ابن عباس يسجد عند قوله: ﴿يَسْمُونَ﴾. وقال ابن عمر: اسجدوا بالآخرة منهما. وكذلك يروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثاب وطلحة وزبيد اليامين والحسن وابن سيرين. وكان أبو وائل وقتادة وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله: ﴿يَسْمُونَ﴾. قال ابن العربي: والأمر قريب.

مسألة: ذكر ابن خويز منددا: أن هذه الآية تضمنت صلاة كسوف القمر والشمس؛ وذلك أن العرب كانت تقول: إن الشمس والقمر لا يكسفان إلا لموت عظيم، فصلى النبي ﷺ صلاة الكسوف.

قلت: صلاة الكسوف ثابتة في الصحاح البخاري ومسلم وغيرهما. واختلفوا في كيفية اختلافها كثيرا، لاختلاف الآثار، وحسبك ما في صحيح مسلم من ذلك، وهو العمدة في الباب. والله الموفق للصواب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ الخطاب لكل عاقل، أي: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على أنه يحيي الموتى ﴿أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: يابسة جدية؛ هذا وصف الأرض بالخشوع؛ قال النابغة:

رَمَادٌ كَكُحْلِ الْعَيْنِ لِأَيَّابِينَهُ وَنُؤْيٌ كَجِدْمِ الْحَوْضِ أَنْلَمُ خَاشِعُ

والأرض الخاشعة: الغبراء التي تثبت. وبلدة خاشعة، أي: مغبرة لا منزل بها. ومكان خاشع.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ أي بالنبات؛ قاله مجاهد^(١). يقال: اهتز الإنسان، أي: تحرك؛ ومنه: تراه كَنْصَلِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى إذا لم تجد عند امرئِ السَّوِّءِ مَطْعَمًا

﴿وَرَبَّتْ﴾ أي: انتفخت وعلت قبل أن تنبت؛ قاله مجاهد. أي: تصعدت عن النبات بعد موتها. وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديم وتأخير وتقديره: ربت واهتزت. والاهتزاز والريو قد يكونان قبل الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فربوها ارتفاعها. ويقال للموضع المرتفع: ربوة ورايبة؛ فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد في جسمه بالكبير طولاً وعرضاً. وقرأ أبو جعفر وخالد «وربات»^(٢) ومعناه عظمت؛ من الربيثة. وقيل: ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي: استبشرت بالمطر ﴿وَرَبَّتْ﴾ أي: انتفخت بالنبات. والأرض إذا انشقت بالنبات: وصفت بالضحك، فيجوز وصفها بالاستبشار أيضاً. ويجوز أن يقال: الربو والاهتزاز واحد؛ وهي حالة خروج النبات. وقد مضى هذا المعنى في ﴿الحج﴾ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدم في غير موضع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَقَمَّنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿مَا يَقَالَ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّنَا لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي: يميلون عن الحق في أدلتنا. والإلحاد: الميل والعدول. ومنه اللحد في القبر؛ لأنه أميل إلى ناحية منه. يقال: ألحد في دين الله، أي: حاد عنه وعدل. ولحد لغة فيه. وهذا يرجع إلى الذين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحق فقالوا: ليس القرآن من عند الله، أو هو شعر أو سحر؛ فالآيات آيات القرآن. قال مجاهد: ﴿يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي عند تلاوة القرآن بالمكاء والتصدي والغلو والغناء^(٣). وقال ابن عباس: هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه^(٤). وقال قتادة: ﴿يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يكذبون في آياتنا^(٥). وقال السدي: يعاندون ويشاقون^(٦). وقال ابن زيد: يشركون ويكذبون^(٧). والمعنى متقارب. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل^(٨). وقيل: الآيات المعجزات، وهو يرجع إلى الأول فإن القرآن معجز. ﴿أَقَمَّنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ﴾ على وجهه وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره. ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قيل: النبي ﷺ؛ قاله مقاتل. وقيل: عمار بن ياسر. وقيل: حمزة. وقيل: عمر بن

(١) صحيح إليه: الطبري (٢٤ / ١٢١) في تفسيره .

(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٤٥) .

(٣) صحيح إليه: الطبري (٢٤ / ١٢٢) في تفسيره .

(٤) ضعيف: السابق (٢٤ / ١٢٣) من طريق العوفيين .

(٥) ذكره السيوطي (٥ / ٦٨٨) في الدر وعزاه لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد .

(٦ ، ٧) صحيح إليهما: الطبري (٢٤ / ١٢٣) في تفسيره .

(٨) مرسل .

الخطاب. وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. وقيل: المؤمنون^(١). وقيل: إنها على العموم؛ فالذي يلقي في النار الكافر، والذي يأتي آمنة يوم القيامة المؤمن؛ قاله ابن بحر. ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ أمر تهديد؛ أي بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد وتهديد وتوعد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ الذكر ها هنا القرآن في قول الجميع؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأحكام. والخبر محذوف تقديره هالكون أو معذبون. وقيل: الخبر ﴿أُولَئِكَ يَنَادُونَ مَنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] واعترض قوله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ ثم رجع إلى الذكر فقال: ﴿أُولَئِكَ يَنَادُونَ﴾ ثم قال ﴿أُولَئِكَ يَنَادُونَ﴾ [فصلت: ٤٤] والاول الاختيار؛ قال النحاس: عند النحويين جميعا فيما علمت. ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي عزيز على الله؛ قاله ابن عباس؛ وعنه: عزيز من عند الله. وقيل: كريم على الله^(٢). وقيل: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي أعزه الله فلا يتطرق إليه باطل. وقيل: ينبغي أن يعز ويجل وألا يلغى فيه. وقيل: ﴿عَزِيزٌ﴾ من الشيطان أن يبدله؛ قاله السدي^(٣). مقاتل: منع من الشيطان والباطل. السدي: غير مخلوق فلا مثل له^(٤). وقال ابن عباس أيضا ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله^(٥). ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي لا يكذبه شيء مما أنزل الله من قبل ولا ينزل من بعده يطله وينسخه؛ قاله الكلبي. وقال السدي وقادة: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ يعني الشيطان ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يستطيع أن يغير ولا يزيد ولا ينقص^(٦). وقال سعيد بن جبير: لا يأتيه التكذيب^(٧) ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾. ابن جريج ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون^(٨). وعن ابن عباس ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من الله تعالى: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ يريد من جبريل ﷺ^(٩)، ولا من محمد ﷺ. ﴿تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. ابن عباس: ﴿تَنْزِيلٍ مِنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقه ﴿حَمِيدٍ﴾ إليهم^(١٠). قادة: ﴿حَكِيمٍ﴾ في أمره ﴿حَمِيدٍ﴾ إلى خلقه^(١١).

قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: من الأذى والتكذيب ﴿إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعزي نبيه ويسليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لك ولأصحابك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يريد لأعدائك وجيعا. وقيل: أي ما يقال لك من إخلاص العباداة لله إلا ما قد أوحى إلى من قبلك، ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد، وهو كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] أي: لم تدعهم إلا ما تدعو إليه جميع الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك. قيل: هو استفهام، أي: أي

(١) انظر: تفسير البغوي (٧/ ١٧٦)، وزاد المسير (٥/ ٣٠٧) لابن الجوزي .

(٢) ضعيف: تفسير البغوي (٧/ ١٧٦) من طريق الكلبي وهو كذاب .

(٣) صحيح إليه: الطبري (٢٤/ ١٢٤) في تفسيره .

(٤) لم أره مسنداً .

(٥) زاد المسير (٥/ ٣٠٧) بلا عزو، وعنده أيضاً أثر الكلبي .

(٦) صحيح إليه: الطبري (٢٤/ ١٢٤) في تفسيره .

(٧) ضعيف: فيه يحيى بن يمان، وقد سبق تضعيفه، وانظر الطبري (٢٤/ ١٢٤) في تفسيره .

(٨) لم أره مسنداً .

(٩ - ١١) زاد المسير (٥/ ٣٠٧، ٣٠٨) لابن الجوزي، وانظر الأقوال كلها في: فتح القدير (٦/ ٣٥٩) للشوكاني .

شيء يقال لك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ . وقيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ كلام مبتدأ وما قبله كلام تام إذا كان الخبر مضمرا. وقيل: هو متصل بـ ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ . ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي إنما أمرت بالإنذار والتبشير.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ الَّذِي هَدَىٰ شِيفَاءَ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ۖ إِذْ أَنزَلْنَاهُمْ وَقُرْآنَهُمْ وَعَلَيْهِمْ عَنَىٰ أَوْلِيَّكَ يَتَأَذُونَ مِنْ مَكَانٍ بِعِيدٍ ۗ﴾
قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي بلغة غير العرب ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: بينت بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية. فبين أنه أنزل بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظما ونثرا. وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدل الدليل على أنه من عند الله، ولو كان بلسان العجم لآلوا لا علم لنا بهذا اللسان.

الثانية: وإذا جازمنا هذا في القرآن عربي، وأنه من لغة العرب، وأنه ليس أعجميا، وأنه إذا نقل شيئا من غيرها لم يسهل علينا فهمه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ وقرأ أبو بكر وحزمة والكسائي: ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بهمزتين مخففتين^(١)، والعجمي الذي ليس من العرب كان فصيحاً أو غير فصيح، والأعجمي الذي لا يفصح كان من العرب أو من العجم، فالأعجم ضد الفصيح وهو الذي لا يبين كلامه. ويقال للحيوان غير الناطق أعجم، ومنه «صلاة النهار عجماء»^(٢) أي لا يجهر فيها بالقراءة فكانت النسبة إلى الأعجم أكد، لأن الرجل العجمي الذي ليس من العرب قد يكون فصيحاً بالعربية، والعربي قد يكون غير فصيح؛ فالنسبة إلى الأعجمي أكد في البيان. والمعنى أقرآن أعجمي، ونبي عربي؟ وهو استفهام إنكار. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ابن عامر: «أعجمي» بهمزة واحدة على الخبر. والمعنى: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ فكان منها عربي يفهمه العرب، وأعجمي يفهمه العجم. وروى سعيد بن جبير قال: قالت قريش: لولا أنزل القرآن أعجميا وعربيا فيكون بعض آياته عجميا وبعض آياته عربيا فنزلت الآية^(٣). وأنزل في القرآن من كل لغة فمنه «الستجيل» وهي فارسية

(١) حصر ابن الجزري رحمه الله في تقريب النشر ص ١٦٩ القراءات المتواترة في قوله تعالى: ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ فقال: قرأه بالخبر قبل وهشام بخلاف عنهما وكذلك رويس من طريق أبي الطيب، والباقون بالاستفهام، وحقق منهم الثانية حمزة والكسائي، وخلف، وأبو بكر، وروح، والباقون منهم بين وبين الأزرق على أصله في البذل وهم على أصولهم في الفصل إلا أن ابن ذكوان نص له جمهور المغاربة على الفصل.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٨) رقم (١٦٠٩) وقال: قال في اللآلئ كالمقاصد: قال النووي في شرح المهذب في الكلام على الجهر بالقراءة إنه باطل لا أصل له. وقال الدارقطني: لم يرو عن النبي ﷺ، وإنما هو من قول بعض الفقهاء راجع: كشف الخفاء فيه بحث قيم حول هذا الحديث.

(٣) مرسل: ورواه الطبري (٢٤/ ١٢٦) في تفسيره بعدة أسانيد، وانظر: لباب النقول (ص ٣٥٧) للسيوطي.

وأصلها: سنك كيل؛ أي طين وحجر، ومنه «الفردوس» رومية وكذلك «القسطاس»، وقرأ أهل الحجاز وأبو عمرو وابن ذكوان وحفص على الاستفهام، إلا أنهم لبنا الهمزة على أصولهم. والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنَّا بِهِ وَهُدًى وَشَفَاءٌ﴾ أعلم الله أن القرآن هدى وشفاء لكل من آمن به من الشك والريب والأوجاع. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ أي: صمم عن سماع القرآن. ولهذا تواصلوا باللغو فيه. ونظير هذه الآية ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقد مضى مستوفى. وقراءة العامة ﴿عَمَى﴾ على المصدر. وقرأ ابن عباس وعبدالله بن الزبير وعمرو بن العاص ومعاوية وسليمان بن قنيس «وهو عليهم عمى بكسر الميم أي لا يتبين لهم. واختار أبو عبيد القراءة الأولى؛ لإجماع الناس فيها؛ ولقوله أولا: ﴿هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ ولو كان هاد وشاف لكان الكسر في ﴿عَمَى﴾ أجود؛ ليكون نعتا مثلهما؛ تقديره ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في ترك قبوله بمنزلة من في آذانهم ﴿وَقُرْ﴾. ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى﴾ يعني القرآن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ذو عمى، لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف. وقيل المعنى والوقر عليهم عمى. ﴿أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يقال: ذلك لمن لا يفهم من التمثيل. وحكى أهل اللغة أنه يقال للذي يفهم: أنت تسمع من قريب. ويقال للذي لا يفهم: أنت تنادي من بعيد. أي كأنه ينادى من موضع بعيد منه فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه. وقال الضحاك ﴿يَنَادُونَ﴾ يوم القيامة بأقبح أسمائهم^(١) ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فيكون ذلك أشد لتوبيخهم وفضيحتهم. وقيل: أي من لم يتدبر القرآن صار كالأعمى الأصم، فهو ينادى من مكان بعيد فيقطع صوت المنادي عنه وهو لم يسمع. وقال علي رضي الله عنه ومجاهد: أي بعيد من قلوبهم^(٢). وفي التفسير: كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون. وحكى معناه النقاش.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَأَتَّخِمُ لَنِي شَكِّ مَنَّهُ مَرِيبٌ ﴿١١﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿فَأَخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: آمن به قوم وكذب به قوم. والكناية ترجع إلى الكتاب، وهو تسلية للنبي ﷺ؛ أي: لا يحزنك اختلاف قومك في كتابك، فقد اختلف من قبلهم في كتابهم. وقيل: الكناية ترجع إلى موسى. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: في إمهالهم. ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي بتعجيل العذاب. ﴿وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مَنَّهُ﴾ من القرآن ﴿مَرِيبٌ﴾ أي شديد الريبة. وقد تقدم. وقال الكلبي في هذه الآية: لولا أن الله أخرج عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لآتاهم العذاب كما فعل بغيرهم من الأمم. وقيل: تأخير العذاب لما يخرج من أصلابهم من المؤمنين. قوله تعالى: ﴿مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ شرط وجوابه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾. والله جل وعز مستغن عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له، ومن أساء فالعقاب عليه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

(١) حسن: الطبري (٢٤ / ١٢٨) في تفسيره.

(٢) ضعيف: فيه ابن جريج، عن مجاهد منقطعاً، وابن جريج عن بعض أصحابه وفيه جهالة، السابق (٢٤ /

نفى الظلم عن نفسه جل وعز قليله وكثيره، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها، دليله قوله الحق ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤] وروى العدول الثقات، والأئمة الأئبات، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جل جلاله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...» الحديث^(١). وأيضاً فهو الحكيم المالك، وما يفعله المالك في ملكه لا اعتراض عليه؛ إذ له التصرف في ملكه بما يريد.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَاذْنُكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿١١﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: حين وقتها. وذلك أنهم قالوا: يا محمد إن كنت نبياً فخبّرنا متى قيام الساعة فنزلت: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة أي وما تخرج ثمرة. ﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي من أوعيتها، فالأكمام أوعية الثمرة، واحدا كمة وهي كل ظرف لمال أو غيره؛ ولذلك سمي قشر الطلع أعني كفراه الذي ينشق عن الثمرة كمة؛ قال ابن عباس: الكمة الكفري قبل أن تنشق، فإذا انشقت فليست بكمة. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الرحمن». وقرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ على الجمع. الباقون «ثمرة» على التوحيد^(٢) والمراد الجمع، لقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ﴾ والمراد الجمع، يقول: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ كما يرد إليه علم الثمار والتنج. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي الله المشركين ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ الذين زعمتم في الدنيا أنها آلهة تشفع. ﴿قَالُوا﴾ يعني الأصنام. وقيل: المشركون. ويحتمل أن يريدهم جميعاً العابد والمعبود ﴿أَذْنُكَ﴾ أسمعناك وأعلمناك. يقال: أذن يؤذن: إذا أعلم، قال:

أَذْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ نَاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ النَّوَاءُ

قوله تعالى: ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي نعلمك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكاً، لما عابوا القيامة تبرؤوا من الأصنام وتبرأت الأصنام منهم كما تقدم في غير موضع. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: بطل عنهم ﴿مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُوا﴾ أي: أيقنوا وعلموا ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي: فرار عن النار. ﴿وَمَا﴾ هنا حرف وليس باسم؛ فلذلك لم يعمل فيه الظن وجعل الفعل ملغى؛ تقديره: وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب. يقال: حاص يحيص حيصاً ومحيصاً: إذا هرب. وقيل: إن الظن هنا الذي هو أغلب الرأي، لا يشكون في أنهم أصحاب النار ولكن يطمعون أن يخرجوا منها. وليس يبعد أن يكون لهم ظن ورجاء إلى أن يؤيسوا.

(١) صحيح: وقد سبق، والزاهد: أبو ذر، وأمين الأرض: النبي ﷺ، وأمين السماء: جبريل - عليه السلام.

(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٠).

﴿ لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤَسِّ قَنُوطٌ ﴾ ﴿١﴾ وَلَئِنْ أذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِمْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ فَلَنَبْتَلَنَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢﴾ وَإِذَا أُنْمِنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٣﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي: لا يبل من دعائه بالخير. والخير هنا المال والصحة والسلطان والعز. قال السدي: والإنسان ها هنا يراد به الكافر. وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأميه بن خلف. وفي قراءة عبد الله «لا يسأم الإنسان من دعاء المال». ﴿وَأَنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤَسِّ قَنُوطٌ﴾ الفقر والمرض ﴿قَنُوطٌ﴾ من روح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته. وقيل: «يؤوس» من إجابة الدعاء ﴿قَنُوطٌ﴾ بسوء الظن بربه. وقيل: «يؤوس» أي: يئس من زوال ما به من المكروه ﴿قَنُوطٌ﴾ أي: يظن أنه يدوم؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ عاقبة ورخاء وغنى ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ﴾ ضر وسقم وشدة وفقر. ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: هذا شيء استحقه على الله لرضاه بعملي، فيرى النعمة حتما واجبا على الله تعالى، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة؛ ليستبين شكره وصره. وقال ابن عباس^(١) ﴿هَذَا لِي﴾ أي: هذا من عندي. ﴿وَلَئِنْ رُجِمْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ﴾ أي الجنة، واللام للتأكيد. يتمنى الأمامي بلا عمل. قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب: للكافر أمثتان: أما في الدنيا فيقول: ﴿وَلَئِنْ رُجِمْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ﴾، وأما في الآخرة فيقول: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] و﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠]. ﴿فَلَنَبْتَلَنَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: لنجزينهم. قسم أقسم الله عليه. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: شديد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْمِنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ يريد الكافر. وقال ابن عباس: يريد عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأميه بن خلف أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه. ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي: ترفع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله. وقيل: ﴿وَنَأَى﴾ تباعد. يقال: نأيت عنه نأيا بمعنى تباعدت عنه، وأنأيت فانتأى: أبعدته فبعد، وتناؤوا تباعدوا، والمنتأى الموضع البعيد؛ قال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مذكركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقرأ يزيد بن القعقاع: «وأناء بجانبه» بالألف قبل الهمزة^(٢). فيجوز أن يكون من «ناء»: إذا نهض. ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأول. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: أصابه المكروه ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة. يقال: أطال فلان في الكلام وأعرض في الدعاء: إذا أكثر. وقال ابن عباس: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ فذو تضرع واستغاثة. والكافر

(١) ورواه الطبري (٢٥/ ٥) مستندا عن مجاهد بسند صحيح.

(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٣٤).

يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرخاء^(١).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ يا معشر المشركين ﴿إِنْ كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ أي: فأَيُّ الناس أضل، أي: لا أحد أضل منكم لفرط شقاقكم وعداوتكم. وقيل: قوله ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يرجع إلى الكتاب المذكور في قوله: ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٥٣] والأول أظهر وهو قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي علامات وحدائتنا وقدرتنا ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ يعني خراب منازل الأمم الخالية ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بالبلايا والأمراض. وقال ابن زيد ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ آيات السماء ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حوادث الأرض. وقال مجاهد «في الآفاق» فتح القرى؛ فيسر الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجسارة والاكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود خارقة للعادات ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فتح مكة. وهذا اختيار الطبري؛ وقاله المنهال بن عمرو والسدي^(٢). وقال قتادة والضحاك: ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ وقائع الله في الأمم ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يوم بدر^(٣). وقال عطاء وابن زيد أيضاً: ﴿فِي الْآفَاقِ﴾ يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها^(٤). وفي الصحاح: الآفاق النواحي، واحدها أفق، وأفق مثل عسر وعسر، ورجل أفقي بفتح الهمزة والفاء: إذا كان من آفاق الأرض. حكاه أبو نصر. وبعضهم يقول: أفقي بضمها وهو القياس. وأنشد غير الجوهري:

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ

﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام^(٥)، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة. وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه. وقيل: ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من كونهم نطفة إلى

(١) الماوردي (٥ / ١٨٩) في تفسيره غير مسند.

(٢) صحيح إلى السدي: الطبري (٦ / ٢٥) في تفسيره.

(٣) فتح القدير (٦ / ٣٦٥) للشوكاني غير مسند.

(٤) صحيح إلى ابن زيد: الطبري (٦ / ٢٥) في تفسيره.

(٥) لا دليل عليه، والله أعلم.

غير ذلك من انتقال أحوالهم كما تقدم في «المؤمنون»^(١) بيانه . وقيل : المعنى سيرون ما أخبرهم به النبي ﷺ من الفتق وأخبار الغيب ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه القرآن . الثاني : الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه . الثالث : أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق . الرابع : أن محمدا ﷺ هو الرسول الحق . ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في موضع رفع بأنه فاعل ﴿يَكْفِ﴾ و﴿أَنَّهُ﴾ بدل من «ربك» فهو رفع إن قدرته بدلا على الموضع ، وجر «إن» قدرته بدلا على اللفظ . ويجوز أن يكون نصبا بتقدير حذف اللام ، والمعنى : أو لم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده ؛ لأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وإذا شهدته جازى عليه . وقيل : المعنى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في معاقبته الكفار . وقيل : المعنى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار . وقيل : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شاهدا على أن القرآن من عند الله . وقيل : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يفعله العبد ﴿شَهِيدٌ﴾ والشهيد بمعنى العالم ؛ أو هو من الشهادة التي هي الحضور ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ﴾ أي في شك ﴿مِنَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة . وقال السدي : أي من البعث^(٢) . ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أي أحاط علمه بكل شيء^(٣) . قاله السدي . وقال الكلبي : أحاطت قدرته بكل شيء^(٤) . وقال الخطابي : هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه ، وهو الذي أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا . وهذا الاسم أكثر ما يجيء في معرض الوعيد ، وحقيقته الإحاطة بكل شيء ، واستئصال المحاط به ، وأصله محيط نقلت حركة الياء إلى الخاء فسكنت . يقال منه : أحاطَ يَحِيطُ إحاطةً وَحِيطَةً ؛ ومن ذلك حائط الدار ، يحوطها أهلها . وأحاطت الخيل بفلان : إذا أخذ مأخذا حاصرا من كل جهة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف : ٤٢] ، والله أعلم بصواب ذلك .

تم الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس عشر وأوله سورة (ص)

(١) عند الآية (١٢) .

(٢ - ٤) انظر النكت والعيون (٥ / ١٩٠) للماوردي بغير إسناد .

ورواه الطبري (٢٥ / ٧) في تفسيره مستندا عن السدي ولفظه (في شك من لقاء ربهم) .